Journal of the University of Babylon for Humanities مَجلّةُ جَامعةِ بَابِل للعُلُومِ الإنسَانيّةِ
Vol. 31/ No. 4/ 2023 المجلد 31/ العدد4/ 2023

"رثاء المدن بين العصرين (العباسي والحديث) في العراق"

أسماء أسعود ادهام
قسم اللغة العربية/ كلية الآداب/ جامعة الموصل
asmaa.s.i.@uomosul.edu.iq

فاتن غانم فتحي النعيمي
قسم اللغة العربية/ كلية الآداب/ جامعة الموصل
faten.g.f@uomosul.edu.iq

تاريخ استلام البحث: 19 /1/ 2023 **تاريخ قبول النشر: 2/ 2/2023** **تاريخ نشر البحث: 17/ 4/ 2023**

المستخلص:

احتل (رثاء المدن) مساحة واسعة في الشعر العربي قديماً وحديثاً، بوصفه لوناً من التعبير طور عن غرض (رثاء الأشخاص) الذي يُعرف بندب الميت والبكاء عليه وتعداد مناقبه بعبارات مشجية وألفاظ محزنة، وذلك بعد أن حل بالمدن الخراب، وهو يعكس طبيعة التقلبات السياسية التي تجتاح عصور الحكم في مراحل مختلفة، وهذا اللون يُعد أكثر تأثيراً من رثاء الأشخاص؛ كونه صادراً عن تجربة قاسية وعميقة تتجاوز آلام الذات بخصوصيتها إلى مكابدة الخطوب التي حلت بالوطن والهموم العظيمة الهامة، وهذا ما دعانا إلى اختياره موضوعاً لبحثنا الموسوم بـــ "رثاء المدن بين العصرين (العباسي والحديث) في العراق".

اعتمد البحث المنهج التكاملي، مفيداً من المنهج النفسي والتاريخي فضلاً عن المنهج البنيوي الذي عدَّ النص المنطلق الرئيس له، مع العناية بالسياقات المحيطة بالنص، للكشف عن صوره وعناصره التكوينية، ورصد دلالته الكلية.

قامت خطة البحث على قسمين، يسبقهما مدخل ويتلوهما خاتمة عرضت فيها نتائجه. أما المدخل ففصل القول فيه عن (رثاء المدن) وأسبابه وتطوره في الشعر العراقي بدءاً من العصر العباسي وإلى يومنا هذا، وخُص القسم الأول بدراسة (رثاء المدن في العصر العباسي)، بينما خُص القسم الثاني بدراسة (رثاء المدن في العصر الحديث).

الكلمات الدالة: العباسي، رثاء، أدب، الحديث، العراق، المدن

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

Journal of the University of Babylon for Humanities مَجلّةُ جَامعةِ بَابِل للعُلومِ الإنسَانيّةِ
Vol. 31/ No. 4/ 2023 المجلد 31/ العدد4/ 2023

"Lamentations for Cities between the Two Ages (Abbasid and Hadith) in Iraq"

Asma Asaoud Adham
Department of Arabic language/ College of Arts / University of Mosul

Faten Ghanem Fathi Al-Nuaimi
Department of Arabic language/ College of Arts / University of Mosul

Abstract:

(Lamentation for Cities) occupies a large area in Arabic poetry, both ancient and modern, as a form of expression that developed the purpose of (Lamentation for Persons), which is known as mourning for the dead and crying and enumerating its characteristics in encouraging terms and sad words, after the ruins befell the cities, and it reflects the nature of the political fluctuations that sweep through The eras of government are in different stages, and this color is more influential than the people's lamentation. Being the result of a harsh and deep experience that transcends the pain of the self with its specificity to the suffering of the calamities that befell the homeland and the great and important concerns, this is what prompted us to choose it as a topic for our research marked "Lamentation of Cities between the Two Ages (Abbasid and Hadith) in Iraq."

The research adopted the integrative approach, benefiting from the psychological and historical approach, as well as the structural approach, which considered the text as its main starting point, while taking care of the contexts surrounding the text, to reveal its formative images and elements, and monitor its overall significance.

The research plan was based on two parts, preceded by an introduction and followed by a conclusion in which the results of the research were presented. As for the introduction, it separated the saying in it from (the lamentation of cities), its causes, and its development in Iraqi poetry, starting from the Abbasid era to the present day.

Keywords: Abbasid, lamentation, literature, hadith, Iraq, cities

المدخل:

لاشك في أن بكاء الديار والآثار يمثل فيما يمثل الجذور الأولى لتعلق الإنسان بالوطن؛ إذ تعد المدينة من ركائز الوطن ومكوناته ونحن لا نعدم في عصر ما قبل الإسلام القصائد الكثيرة التي تبكي الأطلال والديار الدارسة وتناشدها عن الأحبة الظاعنين عنها وأين حل بهم المصير، وهي وقفة لم تكن مقصودة لذات الأثر أو الطلل وإنما تتخذ سببا للوصول إلى شعر النسيب، فكان الشاعر العربي عند وقوفه على الديار والاطلال يلقي باللوم في تغييرها واندراسها على عاتق الزمن والدهر، على أنّ هذا الحنين والتمسك بضرورة رثاء مواطن الصبا والشباب لم يقف على العصر الجاهلي، بل استمر إلى صدر الإسلام والعصر الأموي، ولعل السبب في قصر هؤلاء الشعراء مراثيهم وجميل قصائدهم على الحنين لأيام ومنازل الصبا والشباب، يكمن في أن العربي حينها كان رحالاً متجولاً في معظم أيام حياته، لا سيما وأنّ سكان المدن حينذاك يحظون باستقلاليتهم التامة، إذ لم تذكر لنا حروب العصر الجاهلي نزوح الأهالي عن المدن التي سكنوها؛ لأنّ معظم هذه المدن لم تكن في الغالب خاضعة لسيادة قبائل متعددة، بل إنّ لكل قبيلة مدنها وحواضرها، كما كان لكل قبيلة بواديها الخاصة بها، ولم تذكر

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

لنا كتب الأدب ولا حتى التاريخ عن نزوح جماعي لقبيلة من موطنها، وما إن حل العصر العباسي حتى أصبح شعر رثاء المدن فيه يمثّل موقفا جديدا لشاعر العصر، فرضته الظّروف في المدينة، وارتباطه الوجدانيّ بها، إلى جانب الأحداث والظّروف السّياسيّة الدّاخليّة الّتي عرفها ذلك العصر؛ إذ لم يكن في تراثه الشّعريّ القديم تقاليد فنيّة راسخة تمثّل هذا النّوع من الرّثاء، فكان على الشّاعر أن يعوّل على نفسه في ابتكار الأُطر المعنويّة والفنيّة الّتي يصوغه فيها، ومع تصاعد الأحداث وتواليها ابتداء من سقوط بغداد والخلافة العباسية على يد المغول بقيادة هولاكو وما تلاها من سقوط المدن العربية وخضوعها لهيمنة الاحتلال الغربي في العصر الحديث، كل ذلك أذكى جذوة الرثاء وأطلق شعرية قصيدته، فكان للمدن المنكوبة نصيبا كبيرا منه،عبر الشاعر فيه عن مكابدات المدن وأهلها بفعل العدوان المسلط عليهم، زيادة على التقلبات السياسية الواقعة في عصور الحكم المختلفة، عاكسا حالة من الفقد المادي والمعنوي، ومعبرا عن حالة الانكسار التي مني بها إنسان هذا العصر؛ لتترسخ بذلك أصول الرثاء وعناصره في الشعر العربي الحديث.

أولا: رثاء المدن في العصر العباسي:

يُقال في الرثاء –لغويا– رثى له: رق له، وورد عند ابن فارس: بأن "الراء والثاء والحرف المعتل أُصَيْلٌ على رِقّة وإشفاق. يقال رثَيْتُ لفُلان: رققْتُ. ومن الباب قولُهم رَثَى الميّت بشعرٍ" [1: 2/488]، فرَثى فلان فلاناً يَرْثِيهِ رَثْياً ومَرْثِيَةً إذا بكاهُ بعد مَوته. فإن مدَحَه بعد موته قيل رثّاهُ يُرَثِّيه تَرْثِيةً. ورَثَيْت الميّتَ رَثْياً ورِثاءً ومَرْثاةً ومَرْثِيةً ورَثّيْته: مَدَحْته بعد الموت وبَكَيْته. ورثَوْت الميّت أَيضاً إذا بكَيْته وعدّدت محاسنه، وكذلك إذا نظَمْت فيه شعراً ينظر[14:2/309]؛ إذًا الرثاء لغة؛ هو تعداد مناقب الميت، ونظم الشعر فيه،أي صوت البكاء مع الكلام على الميت، أما اصطلاحا فعرفه الجاحظ بقوله: الرثاء بمعناه العام: أي فن الرثاء، والخاص :أي بكاء الميت وإحصاء محاسنه ينظر[3: 1/304]، وفرَّق قدامة بن جعفر بين المرثية والمدحة بأن المرثية يذكر فى لفظها ما يدل على أنها لهالك مثل كان (و) تولى (و) قضى نحبه (و) ما أشبه ذلك. ينظر [4: 33]، وتبعه في ذلك ابن رشيق وأضاف :وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع بيَّن الحسرة، مخلوط التلهف والأسف والاستعظام إن كان الميت ملكا أو رئيسا كبيرا ينظر [5 :2/147]. فالرثاء يقابل المدح في المعاني ويخالفه في المشاعر ويقول بعض النقاد إنَّ الرثاء هو أصدق الأغراض الشعرية من حيث الشعور والعاطفة ودقة تصوير التفاصيل.

ويعد رثاء المدن أحد الموضوعات الهامة في تاريخ الشعر العربي، وهو نوع من أنواع الرثاء في الشعر، ظهر لأوّل مرةٍ في العصر العباسي، وكان رائده ابن الرومي، وظهر في تلك الفترة بقوَّة، فتوسّعت معانيه وازداد كاتبوه، وكان انعكاسًا أدبيًا على سقوط المدن فجاءت قصيدة رثاء المدن لتصوير الأحداث في عصر الخلفاء العباسيّين من فتن وثورات داخليّة مثل قصيدة الخريميّ في رثاء بغداد، بعد فتنة الأمين والمأمون سنة 197هـ، وقصيدة ابن الروميّ في رثاء البصرة أيام المهتدي بالله العباسيّ سنة 255هـ، الّتي قام بها علي بن محمّد الوزنيين العلويّ، الملّقب بصاحب الزّنج ينظر[6: 6/187].

هذه الأحداث المسجلّة في بنائها الشعريّ الّتي عاصرها الشّاعران كانت من الأعمال الكبرى الّتي ينهض بها الخلفاء، ويضطلع الشّاعر العباسيّ في تسجيلها، ممّا يجعلها وثيقة تاريخيّة ناطقة بواقع الحال، وكأنّ الشّاعر

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

في رثائه شاهدُ عصر، يحاول أن يجسّد معاني وطنيّة وسياسيّة ودينيّة، تصطبغ بطابعه الفكريّ، وطريقته في التّعبير، متأثرا بملامح بيئته الحضريّة الّتي يرسمها بصوره الموحية وبمعجمه اللّفظيّ. فبعد وفاة هارون الرشيد عام 193هـ انتقلت الخلافة إلى ولده الأمين، لكنه فى عام 194هـ أمر بالدعاء لابنه موسى على المنابر بعد ذكر أخويه المأمون والقاسم، ثم أرسل إلى المأمون يسأله أن يقدم ابنه موسى على نفسه، فكان هذا أول الشرر والفتنة بين الأخوين. وفى عام 195هـ بدأ الصراع العسكرى فى العراق بين جيش الأمين وعسكر المأمون. واستمر الوضع على ما هو عليه عام 196 هـ وفيه خُلِعَ الأمين وبويع المأمون ببغداد ثم أعيد الأمين. وفى عام 197هـ استمر القتال الوحشي وحوصرت المدينة. وفى شهر محرم من عام198هـ قتل الأمين ببغداد وعُلقت رأسه وطيف بها فى الشوارع وتولى المأمون الخلافة ينظر [6: 8/ 446].

وقد رثى العديد من الشعراء بغداد بعد هذا الدمار بقصائد تفيض بالحزن واللوعة والتحسر؛ ليبقى هذا الرثاء من أبرز مراثي المدن في الشعر العربي على مر العصور وأكثرها شجن وأسى،فبغداد تلك المدينة التي وصفها القزويني بقوله "أم الدنيا وسيدة البلاد وجنة الأرض وقبة الإسلام ومجمع الرافدين ومنشا ارباب الغابات هواءها الطف من كل هواء وماؤها أعذب من كل ماء وتربتها أطيب من كل تربة ونسيمها أرق من كل نسي"[7 :313] قد تعرضت إلى الدمار إبان الفتنة بين الأمين والمامون فصور الشعراء ما جرى لها في نكبتها ورثوا لحالها وبكوها بكاء ملتاعا، وقد تباينت تلك المراثي بين تصوير حالة الدمار وما يلقى عليها من نيران وما ترمى به من منجنيق كقول الوراق مصورا ما اصاب الناس من عذاب ودمار ومالقوه من شر فنهبت الأموال وأبرزت ربات الخدور من خدورهن بعد إحراقها، من ذلك قوله :

"يـــــا رمـــــاة المنجنيـــــق كلكـــــم غيـــــر شـــــفيق

مـــــا تبـــــالون صـــــديقا كـــــان أو كـــــان غيـــــر صـــــديق

ويلكـــــم تـــــدرون مـــــاتر مـــــون مـــــرارا الطريـــــق" [6: :8/ 446]

ويقول في مقطوعة أخرى مصورا المأساة التي حلت ببغداد بسبب الفتنة بين الأخوين:

"لـــم يبـــق فـــي بغـــداد الا امـــرؤ حالفـــه الفقـــر كثيـــر العيـــال

لا لـــم تحمـــي مـــن حماهـــا ولا خـــال لـــه يحمـــي ولا غيـــر خـــال

لـــيس لـــه مـــال ســـوى مطـــرد مطـــرده فـــي كفـــه راس مـــال" [6: 8/161]

وفي قصيدة أخرى يصور لنا وقعة (الكناسة) التي وقعت سنة 197ه. ينظر [6: 8/460]. وتعد هذه القصيدة وثيقة تاريخية لهذه الواقعة وما جرى فيها من قتال وكيف أن السهام الطائشة كانت تصيب الناس بلا تمييز، والمرثاة تصور حالة الأسى والحزن وذلك لكثرة القتل، وقائد المأمون طاهر بن الحسين يشرف على هذه المأساة ويؤججها، فراح الأبناء يندبون آباءهم كما يندب الآباء أبناءهم وامتلأت دجلة بالغرقى، وطرح الوراق في القصيدة العديد من التساؤلات والأفكار والاستفسارات عن أهداف هذا القتال المدمر ونتائجه ومن المستفيد من هذه المأساة

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

ومن المتضرر حيث قتل في هذه الواقعة العديد من أصحاب الأمين ولم ينسَ الشاعر أن يؤرخ يوم الواقعة فهو (يوم الأحد) :

"وقعـــــة يـــــوم الأحـــــد صـــــارت حـــــديث الأبـــــد
كـــــم جســـــد أبصـــــرته ملقـــــى وكـــــم مـــــن جســـــد
ونـــــاظر كانـــــت لـــــه منيـــــة بالرصـــــد
اتـــــاه ســـــهم عـــــاثر فشـــــك جـــــوف الكبـــــد
وصـــــائح يـــــا والـــــدي وصـــــائح ياولـــــدي
وكـــــم غريـــــق ســـــابح كـــــان متـــــين الجلـــــد
لـــــم يفقـــــده أحـــــد غيـــــر بنـــــات البلـــــد" [8: 3/416]

وهناك العديد من أمثال هذه القصائد والمقطوعات التي جاءت تصويرا لحالة الحرب والدمار دون أن نلمس تلك العاطفة المفجوعة الحزينة لما أصاب بغداد من خراب ودمار، وهذا متوقع في رثاء المدن حيث يختلط الرثاء بالوصف ويأتي تقريريا أحيانا، ولكننا لانعدم مرثاة تمتاز بالعاطفة المتاججة والصور المروعة عن بغداد فهذا قول أحد فتيان بغداد ساكبا أحزانه وأشجانه على بغداد باكيا دما عليها وراح مقارنا بين حياتها بالأمس وحياتها اليوم وهي محاصرة من كل جانب حيث تنهمر عليها حمم النيران جالبة للموت والخراب والحزن والهم والفقر فهو يقول:

"بكيـــت دمـــا علـــى بغـــداد لمـــا فقـــدت غضـــارة العـــيش الأنيـــق [8: 3/484]
تبـــدلنا همومـــا مـــن ســـرور ومـــن ســـعة تبـــد لنـــا يضـــيق
اصـــابتها مـــن الحســـاد عـــين فافشـــت اهلهـــا بـــالمنجنيق [9: 5/158]
فقـــوم أحرقـــوا بالنـــار قســـرا ونائحـــة تنـــوح علـــى غريـــق
ومغتـــرب قريـــب الـــدار ملقـــى بـــلا رأس بقارعـــة الطريـــق
توســـطه فـــي قتـــالهم جميعـــا فمـــا يـــدرون مـــن أي الفريـــق
فـــلا ولـــد يقـــيم علـــى أبيـــه وقـــد هـــرب الصـــديق بـــلا صـــديق" [6: 8/457]

وهناك من الشعراء من عزا ما مرت به بغداد إلى أنه كان نتيجة لحالة الترف والمجون التي عاشها ابناؤها والحياة العابثة واللاهية وانتشار المجون في مجتمعها، ولهذا عاقبها الله بالفتنة، وهذا ما نلحظه في قول الخريمي

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

الذي تعد قصيدته أطول مرثاة في المدن في الشعر العربي؛ إذ بلغت مرثاته في بغداد 135 بيتا [10: 27-37] ومطلعها :

قـــالوا : ولـــم يلعـــب الزمـــان ـــــــــداد وتعتز بهـا عواثرهـا

اذا هـــي مثـــل العـــروس باطنهـــا مشـــــوق للفتـــــى وظاهرهـــــا

فكان بذلك في مستهلّها كأنّه راو يروي لنا قصّة بغداد، بادئا بوصفها قبل الفتنة، فقد كانت عروسا جميلة في مظهرها ومخبرها، فهي في نعيم، وأهلها في حياة ناعمة، ويقول مستمرا في هذا الوصف في الأبيات العشرة الأولى تقريبا وكأن الخريميّ في قوله "قالوا" يخرج نفسه ممّا قيل أو ممّا يمكن أن ينسب الحديث إليه، فيغلّب ضمير الغائبين على المتكلم، وكأنّه يخرج من دائرة القول لينسبها إلى غيره، وكأنّ ذلك يوهم أنّ بغداد ليست مدينته، مع أنّه استخدم ضمير المتكلمين في البيت الخامس عشر:

أورد أملاكنـــــــــا نفوســـــــــهَم هـــوّة غـــيّ أعيـــت مصـــادرها

وأحسب أن موازنة الخريميّ بين حال بغداد قبل الفتنة وبعدها فيها شيءٌ من التّفصيل والاسترسال، أكثر ممّا جاء في قصيدة ابن الرّوميّ، فكأنّ الشّاعر الخريميّ لا يعدو كونه واصفا فحسبُ، فهو يتوقّف عند تفاصيلُ كثيرة، فيذكر الحدائق اليانعة الّتي كانت بهجة للعين وراحة النّفس والقصور الباذخة والقرى المحيطة بالمدينة، والنّخيل والكروم والرّيحان، حتّى أنّه يذكر أحياء المدينة المنكوبة مثل: "زند ورد" و"الياسريّة" و"الشّطين" وغيرها، فيقول:

وأصـــبح البـــؤس مـــا يفارقهـــا إلفـــا لهـــا والسّـــرور هاجرهـــا

بـــ "زند ورد" و"الياســريّة" و"الشطّـــــ ـــــطين" حيـــث انتهـــت معابرهـــا

ولا تخلو أن مرثية الخريميّ من التّأثر بمعان دينيّة فيها الحكمة والتّسليم بقضاء الله وقدره، وإن بدا شامتا، فهو يرى أنّ ما حلّ ببغداد، هو ما حدث لقوم عاد بصرصرها، مبيّنا أنّ الإنسان لا يعرف ما يخبّئ له الدّهر من حوادثَ تصيبه مرّة أو تجافيه أخرى، فيقول:

لا تعلـــمُ الـــنفسُ مـــا يبايتهـــا مـــن حـــادث الـــدّهر أو يُباكرهـــا

ويتصوّر الخريميّ أنّ ما أصاب بغداد هو بظلم أهلها لأنفسهم، فهو عقاب لهم، تصوّر قد يُقبل أو يردّ، يقول

أمهلهـــــا اللهُ ثـــــمّ عاقبهـــــا لمّـــا أحاطـــت بهـــا كبائرهـــا

حلـــت ببغـــداد وهـــي آمنـــةٌ داهيـــة لـــم تكـــن محاذرهـــا

ثمّ يقول إنّ الموازين انقلبت، فغدا العبدُ سيدا والحرةُ عبدة، فتغيّر الحال:

حَطَّـــم العبـــدُ أنـــفَ ســـيّده بـــالرّغم، واســـتعبدت حرائرهـــا

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

ولم يكن الخريمي وحده من رثى بغداد بل هناك من الكتاب أيضا من رثاها وهو محمد بن عبد الملك الزيات، فقد بكى بغداد ونعاها وأبان عن لوعته لخرابها وأشار إلى وقوع الحرب على أبوابها والدمار يعم نواصيها، وهو أمام هذه المناظر المدمرة يائس لا يأمل لها أن تعود كما كانت عليه من العز والبهاء، وقد شبهها بالعجوز التي ولى صباها وشبابها وجمالها، قائلا:

"الآن قـــام علـــى بغـــداد ناعيهـــا فليبكهـــا لخـــراب الـــدهر باكيهـــا
كانـــت علـــى مـــا بهـــا والحـــرب باركـــة والهـــدم يغـــدو عليهـــا فـــي نواحيهـــا
ترجى لهـــا عـــودة فـــي الـــدهر صـــالحة فـــالآن أضـــمر منهـــا اليـــأس راجيهـــا" [11: 96]

ولم يقتصر رثاء بغداد والتوجع لما أصابها من خراب ودمار أيام الفتنة بين الأمين والمأمون، وإنما توجع الشعراء عليها عندما هجرها المعتصم وبنى (سر من رأى) واتخذها عاصمة لملكه وذلك سنة 221هـ، فهذا دعبل الخزاعي يتأسف على ذهاب مكانة بغداد دار الملوك فقد اصابتها داهية برحيل المعتصم عنها، ثم يعرض بـ(سر من رأى) ويدعو عليها بالخراب وهذا مايشبه الهجاء لها ولمن بناها وهو الخليفة المعتصم، وهكذا هو دعبل لم يسلم من لسانه أحد حتى المدن فقد هجاها وعرض بها؛ إذ قال:

"بغـــداد دار الملـــوك كانـــت حتـــى دهاهـــا الـــذي دهاهـــا
ماغـــاب عنهـــا ســـرور ملـــك عـــاد الـــى بلـــدة ســـواها
مـــا (ســـر مـــن رأى) يســـر مـــن را بـــل هـــي بـــؤس لمـــن يراهـــا
عجـــل ربـــي لهـــا خرابهـــا بـــرغم انـــف الـــذي ابتناهـــا" [12: 205]

وتوجع الشعراء من هجر المعتصم لبغداد في العصر العباسي الأول، وتوجعوا أيضا على سامراء نفسها في العصر العباسي الثاني عندما هجرها المتوكل سنة 245هـ وتحول إلى قصره المسمى بالجعفري حيث انتقل معه عامة أهل سامراء حتى كادت تخلو من أهلها جراء حوادث تلك السنة الجسام ينظر [6: 212/9] فهاهو أبو علي البصير يتأسف على ذهاب بهجة سر من رأى ويصفها بما يشبه الرثاء، قائلا :

"أصبحت قفـارا ســر مـن رأى مـا بهـا الا لمنقطـــــع بـــــه مثلـــــوم
تبكـــي بظـــاهر وحشـــة وكأنهـــا إن لـــم تكـــن تبكـــي بعـــين تســـجم
كانـــت تظلـــم كـــل أرض مســـرة مـــنهم فصـــارت بعـــدهن تظلـــم
رحـــل الإمـــام فأصـــبحت وكأنهـــا عرصـــات مكـــة حـــين يمضـــي الموســـم" [13: 143/2]

وكما بكى الشعراء بغداد وسامراء بكوا البصرة أيضا في العصر العباسي الثاني 257هـ إبان ثورة الزنج التي امتدت خلال السنوات 255– 270هـ، وقد كان من أبرز أسبابها سوء المعاملة التي كان يتلقاها الزنج في

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

البصرة من أسيادهم؛ إذ كانوا يكلفوهم بالعمل الشاق فانتقموا منهم بتدمير المدينة وبيع أسيادهم كما يباع العبيد · ينظر [14: 48]، فانعكس هذا الحدث المؤلم على نفسية الشعراء فنظموا القصائد في رثاء البصرة وبكاء أهلها وكانت مرثاة ابن الرومي من أفضل مراثي العصر في المدن ؛ فصور ما أصاب المدينة من دمار وحريق باكيا رسومها وأطلالها، وبدأ بوصف حالها قبل تخريبها بعد اثني عشر بيتا دون تفصيل، واضعا نفسه في قلب الحدث، متأثرا به؛ لتندغم الذّات الفرديّة في الهمّ الجماعيّ، مستخدما ضمير المتكلم، موحيا باللّحمة الّتي تتشكّل بين الشّاعر والبصرة، وأبياته تفيض بالحزن واللّوعة والأسى، فهو لا يطيق النّوم، لأنّه متألّم ومتحسّر لما حلّ بها من دمار وخراب، قائلا:

"ذاد عـــن مقلتـــي لذيـــذ المنـــام شـــغلها عنـــه بالـــدّموع السّـــجام

لهـف نفســي عليـك أيّتهـا البصـــ ـــرةُ لهفـا كمثـل لهـبِ الضّـرامِ" [15: 419]

ويكرّر أيضا (كم) الخبريّة في تصويره لما حلّ بالبصرة في مشاهد متتالية، مبيّنا ما فعل الزّنج بالطّاعم والشّارب والكبير والصّغير والرّجال والنساء، قائلا:

"كـــم رضـــيع هنـــاك قـــد فطمـــوه بشـــبا السّـــيف قبـــل حـــين الفطـــام

كـــم فتـــاة مصـــونة قـــد ســـبَوها بـــارزا وجههـــا بغيـــر لثـــــام" [15: 419]

وإنه يستنهض الهمم؛ ليلهب حماس القوم لإعادة البصرة، فعليهم أن يغضبوا لما حلّ بها من دمار، داعيا إياهم إلى الدّفاع عن مدينتهم، مدغدغا مشاعرهم الدّينيّة لضرورة الغيرة على محارم الإسلام، فهم أمّة النّبيّ محمّد عليه السّلام، وحقّهم القيام وعدم التّقاعس أو القعود، ليشتروا الجنّة الباقية ودار الخلود، وقد رسم لهم سؤال الله وحسابهم عن تخاذلهم عن الدّفاع عن ديار الإسلام بأسلوب خطابيّ وسؤال مباشر. قائلا في ذلك:

"يـــا عبـــادي: أمـــا غضـــبتم لـــوجهي ذي الجـــــلال العظـــــيم والإكـــــرام

أخـــــذلتم إخـــــوانكم وقعـــــدتم عـــــنهم، ويَحكـــــم، قعـــــود اللئـــــام ؟

إن قعـــدتم عـــن اللعـــين فـــأنتم شـــركاء اللعـــين فـــي الآثـــام" [15: 419]

ومما يُلاحظ في موازنة ابن الرّوميّ لحال البصرة في صورة مأساويّة بادئا بما حلّ بها من الدّمار، ثمّ واصفا المدينة قبل التّخريب في مشاهد حيّة ومتلاحقة من البيت الأوّل حتّى البيت الخمسين، متفاعلا بإحساسه ومشاعره مع الحدث آسفا عليه.

إذن شعر رثاء المدن كان يفيض بالحزن واللّوعة، ولكنه مع ذلك يكتظّ بالحماسة والقوّة وتمجيد الماضي والاستلهام منه للإفادة منه للحاضر، وأنّه يُضرم الحميميّة في نفوس الشّباب المسلم للدّفاع عن العروبة حتّى الموت دفاعا يقوم على البأس والبسالة والاستطالة.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

ثانياً: رثاء المدن في العصر الحديث:

حظي (رثاء المدن) باهتمام الشعراء المحدثين، ممتداً على صفحات واسعة من نتاجهم الشعري، إبان حلول الخراب في مدنهم، عاكسا طبيعة التقلبات السياسية التي تجتاح عصور الحكم في مراحل مختلفة، وهذا اللون يُعد أكثر تأثيراً من رثاء الأشخاص؛ كونه صادراً عن تجربة قاسية وعميقة تتجاوز آلام الذات بخصوصيتها إلى مكابدة الخطوب التي حلت بالوطن والهموم العظيمة العامة فهو يجسد حالة من الفقد المادي والمعنوي، وتكون ذات أثر عميق وشديد على النفس؛ لأنها تعبّر عن حالة انكسار كاملة، وفقدان الإنسان لذاته ووطنه. ينظر[16: 89].

والمدينة– كما أشار عز الدين إسماعيل– تمثل "كياناً له معنى ووجود في نفوس أهلها.. تربطهم بها روابط كثيرة مادية ومعنوية، فتولد في نفوسهم شعور إنساني نبيل إزاء المدينة عبروا عنه في صدق وحرارة، عندما رأوا الخراب والدمار يحل بها، كأنهم فقدوا عزيزاً لديهم" [17: 322] .

وعليه فإن الطابع الغالب على هذا اللون يتمثل بالأسى العميق وبصدق العاطفة الناجمة عن عمق الشعور بالحزن والمرارة، فضلاً عن التصوير الواقعي لحال الساكنين في المدن المنكوبة بالعدوان، ونقل تجاربهم المريرة . ينظر[18: 201].

أما الاهتمام به فيعود إلى دوافع داخلية مرتبطة بواقع تجربة الوطن بما يحيط به من الأطماع السياسية الخارجية، وكثرة الصراعات السياسية الداخلية وتقلباتها التي كان لها آثار سلبية على الانسان عامة والذات الشاعرة خاصة؛ ليُبرز في الشعر العراقي الحديث بوصفه لوناً متطوراً ومنبثا في ثنيات القصيدة "بكى فيه الشعراء القيم قبل الأجساد والشجر والحجر، فجاءت أشعارهم ترجماناً لوعي الشاعر المثقف الذي ينظر إلى المستقبل وهو يندب الحاضر ويرثيه، وكانت قصائدهم مؤثرة تتفاعل مع الوجدان العام وتدفع بشكل أو بآخر إلى التأمل والتدبر بحثاً عن وضع جديد" . [19: 1]، مُجسدة حزنهم على خراب مدنهم بفعل العدوان، مُعلنة عن موقفهم الرافض لفعله وتسلطه على المكان وأهله، وبذلك استطاع الشاعر الحديث أن يغير مفهوم هذا اللون الشعري من البكاء والندب إلى شعر سياسي وطني اجتماعي، مطلقاً فيه عاطفته إلى معاني الموت والحياة والتحدي والرفض والصمود . ينظر[20: 77].

وقد كان للمدن العراقية حضور واسع في القصائد الشعرية الحديثة، وأبرز هذه المدن حضوراً هي (بغداد، والبصرة، والموصل، والفاو، وبابل، والفلوجة...) رثا الشاعر في تلك القصائد حال مدنه، معبراً فيها عن حيرته من تردي واقعها، عازياً الأسباب إلى ضعف السلطة وتبعيتها للآخر، وهذا ما خرجت إليه قصيدة (مدينة عادية) للبياتي، التي قال فيها:

"وعندما تعرت المدينةُ
رأيتُ في عيونها الحزينة
مباذلُ الساسة واللصوص والبيادقْ
رأيتُ في عيونها المشانقُ

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

تُنصب والسجون والمحارق
والحُزنُ والضياعُ والدُّخانْ..." [21: 2/281–282]

إن الشاعر بإطلاقه مجازاً لصفة (العُري) ونسبتها للمدينة، أشار إلى تجردها عن الفضائل بفعل هيمنة السلطة الحاكمة (مباذل الحُكام، واللصوص) لتغدو مكاناً مفزعاً يحيط به القهر والدمار، وهذا ما خرجت إليه الرموز الدالة على الترهيب (المشانق والمحارق، والحزن، والضياع، والدخان..) إشارة إلى انغلاق فضاء المدينة على السلب والبؤس والفناء، وهذا ما عمق إحساس الذات الشاعرة بالغربة والشعور بالضياع.

وخرجت قصيدة السياب (حطمتُ قيداً من القيود) إلى المعنى نفسه، من ذلك قوله:

"قال (الحليف) كما يشاءُ ووقــعْت
باسم الجياع (صحائف) الأرزاء!
في كل سطرٍ آهة من أيمٍ
ولهى، وكفا سائلٍ بكــّاء!
قذف (الأجيرُ) برائديه وصحبه
في جانبيه فغصّ بالعملاء!!
النائمين على الحرير وحولهم
شعب مراقده على الغبراء!
التاركين لكل كوخٍ آهة
ولكلِ قصر ضحكةَ استهزاء!
السارقين من الرضيع وأمهِ
(لبناً) لكلبٍ نابح وجراء!!.." [22: 1/496].

في هذه القصيدة يبرز صدق الشاعر في الوقوف على أسباب انهيار المدن المقترن عادة بفساد الحاكم المُكنى عنه بـــ (الأجير، والجراء) وتواطئه مع الآخر (الحليف، العملاء، الكلب)، وخيانته لشعبه وقضاياها المصيرية، مستعيناً بالاستعارة والمجاز في قوله (النائمين على الحرير..، شعبٌ مراقده على الغبراء، التاركين لكل كوخٍ آهة، ولكل قصر ضحكة استهزاء..) لتقديم صور شعرية معبرة عن قسوة الواقع، فضلاً عما أفاد به تكرار علامة التعجب المنفردة (أربع مرات) والمزدوجة (مرتان) من تأكيد لاستنكار الشاعر وتهكمه بدناءة أفعالهم وذلك؛ لاستيحاء "روح الشعب في اللفظ والتعبير والفكرة" [23: 152]مجسدة صور استلاب الانسان وحقه وأرضه بفعل تدهور الأوضاع السياسية، لتغدو القصيدة بمثابة خطاب سياسي يدعو الشاعر فيه لاستنهاض الهمم والثورة على ذلك الوضع.

وهذا ما خرجت إليه قصيدة (عاقول صحراوي في محرقة العصر الأمريكي) لعبدالوهاب إسماعيل، قائلاً فيها:

"طوبى

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

للقرن
الواحد والعشرين...
طوبى
للعرب الأجوادْ...
يتناخون خفافاً
وثقالاً
وهمو يدعون
على رأس الأشهادْ...
أنْ يعلو
سورُ حصارِك
يا بغدادْ.." [24: 159-160]

إن تضافر التراكيب مع المعاني أوحى بحدة الألم المهيمن على نفس الذات الشاعرة، الناجم عن تواطؤ العرب مع سياسية العدو الأمريكي الممنهجة بأمر فرض الحصار على (بغداد) بوصفها (هنا) رمزاً للعراق ومدنه قاطبة، وهذا ما أفاد به تكرار الصيغة الطلبية الإنشائية (طوبى) (مرتان) في قوله (طوبى للقرن العشرين، طوبى للعرب الأجواد)، تأكيداً على ازدرائه بهم، بدلالة وصفهم (بالأجواد) الذي يتنافى مع أفعالهم العدائية (يتناخون..، يدعون..).

وقد غصت دواوين الشعراء بقصائد استنكار العدوان على المدن العراقية، مستذكرين تلك المدن القوية الجميلة، راثين حالها بعد وقوع العدوان عليها وحال أهلها بعد أن أحل العدو فيها الدمار، ومن ذلك قصيدة (سلام على بغداد) التي رثى فيها الشاعر عبدالرزاق عبدالواحد (بغداد) بعد أن مرت عليها عواتي الدهر من حرب وحصار، ومن ذلك قوله:

"سلامٌ على بغداد شاخَتْ من الأسى ... شناشيلُها.. أبلامُها.. وقِفافُها
وشاخت شواطيها، وشاخت قبابُها ... وشاخت لفرط الهمِّ حتى سُلافُها
فلا اكتُنِفَتْ بالخمر شطآنُ نهرِها ... ولا عاد في وسعِ النَّدامى اكتنافُها!
سلامٌ على بغداد.. لستُ بعاتبٍ ... عليها، وأنَّى لي وروحي غلافُها
فلو نسمةٌ طافتْ عليها بغيرِ ما ... تُراحُ به، أدمى فؤادي" طوافُها [25: 1]

فتكرار أسلوب الدعاء الطلبي في هذا المقطع (مرتين) أكد على عمق ارتباط الشاعر بمدينته (بغداد) والتوجه إليها بابتهالات ودعاء لإحلال زمنية السلام بعد أن أمعن العدوان فيها الخراب، بدلالة تكرار الفعل

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

الماضي (شاخت) الدال على زوال الفاعلية والاندثار، لتغدو القصيدة ترنيمة حزن ورثاء للمكان الذي تواشجت معه الذات الشاعرة وبدت متوحدة فيه بدلالة (البيت الأخير من المقطع) المؤكد لانتمائه وحبه للوطن.

ورثت الشاعرة مي مظفر (بغداد) في قصيدتها (المدينة) إثر وقوع العدوان الأمريكي عليها:

"يرسو المساءُ ولا سفينُ يُبحرُ
ويدُ الشتاء تمتدُ لا تتحذرُ،
تستلُ من قلبِ المدينة دفئها..
فيفيضُ من جُرحِ البيوتِ أنينها
بغدادُ..
لؤلؤة ثوت في القاع هل من
عاشقٍ.. أو ساحرٍ
يندسُ بينَ رمادِها.. ويعيدها" [26: 76]

فالملاحظ أن القصيدة تفيض بمشاعر الحزن والفقد النابع عن كارثية وقوع العدوان على بغداد/ العراق، الذي عبّر عنه رمز (رسو المساء، والشتاء..) دلالة على فقدان الفاعلية والأمان (الدفئ). وهذا ما أكده تكرار الصيغة المضارعة في الأفعال (يرسو، يبحر، تمتد، لا تتحذر، تستل، يفيض، يندسُ، يعيد) الدالة على امتداد العدوان وشموليته في الحال والاستقبال؛ لتبقى بغداد وحيدة محاطة بالأطماع والعدوان وهذا ما أكده انفرادها (بصرياً) في السطر الشعري (الخامس)، لينتهي الأمر بلجوء الشاعرة إلى الخيال بحثاً عن البطل المخلص (العاشق، الساحر) بعد أن أدركت عدم الخلاص في عالم تحكمه الأطماع، فالخيال يبرز هنا كأداة مقاومة للسلب المهيمن على الذات الشاعرة حفاظاً على نقائها وطهرها وسعادتها في مقابل التردي السياسي والاجتماعي والإنساني والأخلاقي في المجتمع المادي . ينظر [27: 210] سواء على صعيد الوطن أم الأمة التي تخلى الكل فيها/ الحُكام العرب، عن الجزء/ العراق.

وقد توالت على العراق أحداث جسام بدءاً بالحرب العراقية الإيرانية، وحرب الكويت، والحصار الذي أُختُتم بالحرب الأمريكية التي انتهت بسقوط العراق واحتلاله، زيادة على الاضطرابات السياسية التي أفضت إلى غزوٍ من نوع جديد مُتمثلٍ بالغزو الداعشي الذي قضى على الفاعلية والإيجاب وترك العراق يعاني الضياع والخراب، كل هذه الأحداث تركت العراق ضعيفاً ومدنه مُستلبةً تتقاذفها الأطماع؛ وفي المراحل السابقة كافة أُذكيت جذوة القصيدة العراقية الحديثة، لتسرد مرثية البلد العريق، رافضة الخضوع والاستسلام لكارثية واقعه.

وإلى ذلك خرج نص (النخيل) الذي سردت فيه الشاعرة بشرى البستاني مأساة (البصرة) المدينة الجريحة المنكوبة بالعدوان متوجهة بالخطاب للوطن، قائلة فيها:

"لا تُغادرني إلى الظلمة
تلتفُ مع البردِ الحقول
بأساها..

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

دجلةُ المستريبة تبحث عن قمرٍ أخضر
في ضفتيها شرارةُ حُمَّى
وفي جرفها وجعٌ مُستحيل
على شفتيها جداول مجروحةٌ
ونخيلٌ قتيل" [28: 84]

إن دلالات العنوان (النخيل) تغلغلت في النص بما حمله من معانٍ دالة على القدسية والسمو والخصب..، معبراً عن المدينة الصامدة/ البصرة، بوصفها رمزاً للعراق قاطبة؛ وقد توجهت الشاعرة بالخطاب إلى الوطن داعية إياه التزام المقاومة، وهذا ما أفادت به الصيغة الانشائية الطلبية في قولها (لا تغادرني إلى الظلمة) المحملة بدلالة النهي عن الاستكانة والاستسلام (للظلمة) والتزام أسباب الصمود (البحث عن القمر الأخضر، وإيقاد شرارة الحُمى في ضفتي دجلة..) بوصفها صوراً نابضة برموز المقاومة والسمو والسلام والفاعلية.

واعتمدت الشاعرة آلية بث الفاعلية والحياة في المكان بوساطة أنسنته بإضفاء صفات البشر إليه ؛ ينظر [29: 1] ليأتي مقاوماً لسلطة العدو..، (فالحقول← تلتف بأساها، ودجلةُ← تبحث عن قمر أخضر، والضفاف← ملتهبة بالحمى..) لتتضافر عناصر القوة والحياة لمقارعة الموت والفناء بحثاً عن الخلاص.

وهكذا انهالت الأحزان في قصائد الشعراء ومنهم الشاعرة بشرى البستاني لتسرد قصصاً عن واقع الوطن المحتل الجريح، داعية إياه إلى التزام المقاومة والصمود، وهذا ما نلمحه في قصيدتها (طيورٌ لشجر الميس)، من ذلك قولها:

"دليني..
كيف الدربُ إلى تيجان الموصل
أشجان البصرة
والماءُ دليل
وخذيني نحو معابرَ بغدادَ
جروحاً تشعلها الخوذ الأمريكية
والدبابات.." [30: 78]

فالشاعرة في هذا النص لا تستكين لإرادة المحتل، وإنما نجدها باحثة عن سبل المقاومة في اصقاع الوطن كافة (الموصل، البصرة، بغداد)، وهذا ما أفاد به الخطاب الموجه للطيور (دليني)– بوصفها رمزاً للسلام والسمو والانتشار– الذي عبّر فيه الاستفهام (كيف الدرب..) عن البحث عن سُبُل المقاومة، لتحقيق الانتصار.

ونرصد لها قصيدة في رثاء (الفلوجة) التي استباحها العدو الامريكي، بعنوان (في حديقة العراق)، تشجب فيها تواطؤ الدول العربية مع العدوان، وذلك في قولها:

"قُبلٌ مبللةٌ،
أضاميمٌ تُبعثرها (الأباجي)

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

والنيلُ يغرقُ في دم الفلوجةِ المسفوحِ
بين الرمال والمرجانِ
بين حرائق الرمانِ
بين هوية غرقى وظلِ غامضِ
وفنون آلهة الكلام
يبقى العراقُ هوية وهدية
يبقى الفراتُ طريقهم للموت
تبقى الريحُ قبلتنا
وهذي الأرضُ فُلك..." [30: 99-100]

أفاد ابتداء النص بالجمل الاسمية المتوالية في الأسطر الأولى (الثلاثة) دلالة ثبات حال ضياع الحب وتشتته بين وطن الشاعرة/ العراق والنيل/ مصر بفعل تواطؤ السلطة الحاكمة مع المحتل، وعزز هذا الأمر الفعلان المضارعان (تبعثرها، وغرق) الدالة على استمرارية الحدث ودوامه.

وهذا ما عزز مشاعر الحزن في دواخل الذات الشاعرة، التي أعربت عن استنكارها لهذا الفعل غير المبرر، مطلقة صوت اليقين بالتجدد والانبعاث بدلالة تكرار الفعل (يبقى، تبقى) ثلاث مرات، الدال على المقاومة والثبات على الموقف الناجم عن الشعور بالانتماء والاعتزاز بهذا البلد العريق.

ونجد روح اليقين بانبعاث المكان حاضرة أيضاً في قصيدة (من الجانب الأيمن) للشاعر نامق سلطان التي قدم فيها مرثية لمدينة الموصل، لاسيما الجانب الأيمن منها الذي تعرض إلى الإبادة الشاملة بفعل العدوان الداعشي، ومن ذلك قوله:

"في الجانب الأيمن
الأشياءُ العالية لم تعد عاليةً
كلّها نزلتْ إلى الارض
حتى السماءْ...
كل هذه الأماكن هُدِّمتْ
أما روحها
فستبقى محلقةً عالياً
فوق الجانب الأيمن.
تذكرتُ..
أن شيئاً ما ينقصُ هذا العالم.
كانوا يسمونهُ (الشرف).." [31: 26، 29]

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

فمع ضياع معالم (الجانب الأيمن من المدينة) إلا أن الشاعر آمن بانبعاث المكان وخلوده وذلك في قوله (أما روحها/ فستبقى محلقةً عالياً)، معرضاً بالعدوان المتسلط عليه بتخصيصه (بنقصان الشرف)، لما تركه من آثار سلبية حفرت عميقاً في الذاكرة الانسانية والشعرية، التي وقفت أمام أفعاله بالذهول، فنراه مثلاً في قصيدة (مهجرون) يروي قصة مأساة المهجرين عن المدن المنكوبة ناقلاً للمتلقي صوراً عن حجم معاناتهم ومصيرهم المجهول، ومنها قوله:

"هذه بيوتٌ لم تكتمل
يسكنها مُهجرون،
المُهجَّرون حياتهم لم تكتمل
سقطتْ منها أشياءٌ كثيرة
عندما جاؤوا هنا
تاركين وراءهم أحلاماً
لم تكتملْ هي الأخرى..
.. المهجرُّون،
كانت محاولتُهم ناجحةً
للهروب من الموتِ
إلى الموت" [31: 46-47]

فالمهجر بفعل العدوان لم يرحل عن المكان وحسب، بل رحل عن آماله وأحلامه وعن الحياة ذاتها؛ إذ انتهى به الأمر إلى الموت المادي والمعنوي.

ومما تجدر الاشارة إليه في هذا اللون من الرثاء، اعتماد الشعراء على آلية (الاستذكار) لاستدعاء الماضي المشرق للمدن المنكوبة ومقارنته بحاضرها المتردي، لتغدو هذه الآلية أداة لاستنفار الهمم للوقوف بوجه العدوان والنهوض بواقعها الحالي.

وهذا ما نجده ماثلاً في قصيدة (نور العراق) للشاعر علي محمد أيوب قائلاً فيها:

".. تيمورلنك
خجلٌ من ماضي العراق
حين انضوى المغول
تحت راية الهدى
حين انحنى المغول
ليبرق الاسلام
وقبلوا ثرى العراق
سَقطْتِ يا بغداد مرتين

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

وما انحنى ببابك الرجال
سقطتِ يا بغداد مرتين
ومايزالُ العرب غارقين
حتى العنق في مستنقع الأوحال" [32: 14-15]

إن استذكار الماضي بما فيه من أمجاد ومواقف مؤلمة (استذكار غزو المغول لبغداد وما تمخض عنه من أمر انضوائهم تحت راية الإسلام) إنما جاء بمثابة أداة لاستنهاض الهمم وبعث أمجاد الماضي واستلهامها في الحاضر؛ إذ أفادت القصيدة من "الاندفاعات الثورية المتقدمة في الماضي... (مستوحية) المضامين الحية لتلك الاندفاعات... ومغزاها الزاخر بالفهم للمكان والزمان،... ونبلها العالي وعصيانها على الأهواء والانزلاقات إلى الظلمة، وتمنعها عن المغريات السطحية العابرة" [33: 13]؛ لتنهض بالواقع الحضاري للوطن، وتكرار جملة (سقطت يا بغداد مرتين) (مرتين) جاء مؤكداً أمر انبعاثها من جديد مع كل التحديات المحيطة بواقعها الآني.

وهذا ما اعتمده الشاعر حيدر محمود عبد الرزاق أيضاً في قصيدته (أنا والموصل)، التي استذكر فيها تاريخ الأمجاد الحضارية لهذه المدينة العريقة، للوقوف به بوصفه أداة فاعلة إزاء الموت والدمار الذي خلفه الاحتلال الداعشي لها:

"الموصل ناقوسٌ
ومنائر
وعمائر جنبَ عمائرْ...
وزقاقٌ مغسولٌ بالأمطار، وبالنجم الساطع،
والأقمارْ
وحرائر جنب حرائر...
الموصل صفي،..
ومكان جلوسي...
فرحي، وجهي الباسم
أحلمُ...
الحلمُ وعلى الأبوابِ يراقبنا
ليرافقنا للآتي،...
ونطيرُ مع الصبح الطائر" [34: 10،14-15]

هذه الصور المفعمة بالايجاب استحضرها الشاعر لمقابلة صور الخراب، الناجم عن العدوان المسلط على المدينة/ الموصل، الذي أورث الشاعر حالة من الحزن والضيق، بدلالة قوله:

"كان الحُلم على شِدَّته يفتُرْ
والحُسنُ على روعته يخسرْ

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

والذاكرة الحُبلى تذبُلْ
وأنا أصحو،..
فأرى جدران الموصلْ
يصبغها وقتٌ يحزَنْ.." [34: 26-27]

فالصور هنا جاءت مناقضة للصور السابقة التي بدت محملة بالفاعلية والحياة، فهي صور تنبض بالحزن والألم والحسرة على ما ألم بالمدينة من دمار وخراب فـ(الحلم يفتر، والحسن يخسر، والذاكرة تذبل، والجدران والوقت يحزنان؛ لذا استعان الشاعر بالماضي ليغدو آلية لمقاومة الخراب الداخلي النفسي ورفده بالطاقة لاجتياز السلب وتفعيل الايجاب، فالمكان "يترك أثره في اللاوعي الذي يعيد انتاج الصور عن ذلك المكان، ومع مرور الزمن لا تكون تلك الصور مطابقة غالباً للواقع بل إنها تكون مطابقة لذكرى المكان"[35: 50] في مخيلة الذات الشاعرة التي تعيد صياغة الماضي وتشكله بوصفه "قيم مُتخيلة يختزلها العقل الباطن ثم تصبح هي القيم المسيطرة"[35: 31] باثة فيها القدرة على المقاومة والصمود.

وأخيراً فإننا نقف في هذا اللون الشعري، على قصائد تحذر من العدو وتدعو للترصد لمخططاته، ومن ذلك نص (ألواح) للشاعر مزاحم علاوي الشاهري، قائلاً فيه:

"افتح
عيونكْ في الظلام
ستبصر العجب العجابْ
مدناً تنام على الطوى
بشراً
بأنحس ما يكون
تعويذةً تدنو
فينتفض الجنونْ..
لا تلق سيفك من يديكَ
فالنارُ
ساعيةً إليكْ.. " [36: 52-53]

فالشاعر يقيم هنا دعوة صريحة للترصد بالعدوان وصد مخططاته، عبرت عنها الصيغة الطلبية الأمرية بقوله (افتح عيونك..) التي توجه بها إلى المخاطب/ المتلقي للكشف عن فضاعة أفعال المحتل وخططه التي تحاك في الخفاء (الظلمة)؛ لذا استعان بصيغة النهي (لا تلق) الداعية إلى أخذ الحذر والترقب لصد الشر (النار) عن المكان/ المدن، وأهله.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

الخاتمة:

في ختام مسيرتنا البحثة وقفنا على النتائج الآتية:

1- إن تصاعد الصراعات السياسية والحروب والاستعمار، كلها عوامل فاعلة في إذكاء جذوة أدب رثاء المدن في العراق وغيره من البلدان المضطهدة بالعدوان والتبعية السياسية للآخر.

2- فعل شعور الحب والانتماء إلى الوطن ومدنه كافة هذا اللون الشعري، فجاء مصطبغاً بالأسى العميق وبصدق العاطفة النابعة عن الشعور بالحزن والمرارة على ما ألم بالمدن من خراب ودمار، زيادة على أن التصوير الواقعي لحال أهلها ونقل تجاربهم المريرة.

3- رثاء المدن لا يختلف كثيرا عن رثاء الأشخاص؛ إذ يصدر عن تجربة حزينة وعاطفة تفجع مصدرها فعل الزمن السلبي فهو شعر ملئ بالأسى واللوعة والبكاء والترحم والدعوة إلى العودة إلى الله والوحدة ولم الشمل، بفارق أن رثاء المدن يعكس حالة فقد مزدوج تجمع بين البعدين المادي والمعنوي مما يجعلها أكثر عمقا وأثرا وأشد وطأة على النفس البشرية ؛لأنها تعبر عن حالة انكسار كاملة وفقدان الأمة لذاتها.

4- الرثاء في العصر العباسي اتخذ صورة واضحة، ولم يختلط بغيره من الأغراض ولم يقصد به اتخاذ العبرة والعظة، مماحل بتلك الأماكن فحسب، وإنما مثل اتجاها جديدا في هذا العصر.

5- تطورت معايير هذا اللون الشعري في العصر الحديث على يد الشاعر، منتقلاً به من البُكاء والندب والعويل إلى شعر سياسي وطني اجتماعي، عالج فيه قضايا الموت والحياة والتحدي والمقاومة والصمود.

6- استعان الشاعر بآليات عدة لرفد النص الرثائي بطاقات الإيجاب وقيم الفاعلية، لمقاومة السلب فيه، ومنها آلية الاستذكار، والتضاد الصوري وغيرها.

CONFLICT OF INTERESTS

There are no conflicts of interest

المصادر والمراجع:

[1] مقاييس اللغة، ابن فارس بن زكريا (ت 395هـ)، تحقيق :عبد السلام هارون، دار الفكر، د.ط، 1979م.

[2] لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الصري الأفريقي (ت 711هـ)، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت.

[3] موسوعة المفاهيم الإسلامية، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، د.ط، د.ت.

[4] نقد الشعر، قدامة ابن جعفر (ت337هـ)، ط1، 1302هـ.

[5] العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيق القيرواني(ت493هـ)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط5، 1981م.

[6] تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر،د.ط، د.ت.

[7] آثار البلاد وأخبار العباد، القزويني، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت.

[8] مروج الذهب ومعادن الجوهر،أبو الحسن المسعودي، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مصر، ط2، 1958م.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

[9] الكامل في التاريخ، ابن الأثير (630هـ)، دار صادر، بيروت، د.ط، 1965-1966م.
[10] ديوان الخريمي، جمع وتحقيق: علي جواد الطاهر، محمد جبار، بيروت، ط1، 1971.
[11] ديوان الوزير محمد بن عبد الملك الزيات، قدم له: د. جميل سعيد، د.ط، 1949م.
[12] شعر دعبل الخزاعي، عبد الكريم الأشقر، المجمع العلمي العربي، دمشق، د.ط، 1994م.
[13] معجم البلدان، ياقوت الحموي(ت626 ه)، مطبعة السعادة، مصر، ط1، مج2، 1906م.
[14] الرثاء، د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، د.ط، 1955م.
[15] ديوان ابن الرومي، نصنيف: كامل كيلاني، مصر، د.ط،1924م : 419.
[16] ظاهرة الرثاء في القصيدة الأردنية، دار الكتب الثقافي، الأردن، د.ط، 2005م.
[17] خارج السياق، د. أحمد مجاهد، أطلس للنشر والانتاج الإعلامي، الجيزة- مصر، ط1، 2013م.
[18] دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، دار المعارف، مصر، ط1، 1980م.
[19] رثاء النكسة في الشعر العربي الحديث، مدونة د. رمضان حينوني، المركز الجامعي لتامنغست، الشبكة الالكترونية: https://www.ramadaneblog.wordpress.com
[20] شعر الرثاء العربي واستنهاض العزائم، عبدالرشيد عبدالعزيز سالم، وكالة المطبوعات للنشر والتوزيع، الكويت، ط2، 1982م.
[21] ديوان البياتي، عبدالوهاب البياتي، دار العودة، بيروت، ط2، 1979م.
[22] الأعمال الشعرية الكاملة، بدر شاكر السياب، دار العودة، بيروت، د.ط، 2003م.
[23] المدينة في الشعر العربي المعاصر، د. مختار علي أبو غالي، سلسلة عالم المعرفة (196)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، د. ط، أبريل- 1995م.
[24] هواجس على مرآة خاصة، عبدالوهاب اسماعيل، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد- العراق، ط1، 2001م.
[25] عبدالرزاق عبدالواحد، سلام على بغداد، بوابة الشعر، الشبكة الالكترونية: . https://poetsgate.com
[26] ليليات، مي مظفر، دار الشروق، عمان، د.ط، 1996م.
[27] الرحلات الخيالية في الشعر العربي الحديث (دراسة)، محمد الصالح السليمان، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د.ط، 2000م.
[28] أندلسيات لجروح العراق، بشرى البستاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2010م.
[29] أنسنة-الأدب-، ويكيبيديا، الشبكة الالكترونية: https://ar.m.wikipedia.org.com .
[30] مواجع باء- عين، بشرى البستاني، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان- الأردن، ط1، 2012م.
[31] مثل غيمةٍ بيضاء، نامق سلطان، طباعة ونشر وتوزيع تموز ديموزي، ط1، 2019م.
[32] ذكرى البوح، علي محمد أيوب، دار أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2012م.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

[33] مملكة الغجر (دراسات نقدية)، علي جعفر العلاق، سلسلة دراسات (258)، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر– العراق، دار الخلود للطباعة والنشر– بيروت– لبنان، د. ط، 1981م.
[34] أنا والموصل، د. حيدر محمود عبدالرزاق، دار نون للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 2018م.
[35] جماليات المكان، غاستون باشلار، ترجمة: غالب هالسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والتوزيع والنشر، بيروت، د.ط، 1978م.
[36] رماد كائن في الليل، مزاحم علاوي الشاهري، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط1، 2000م.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq